الاسلحـــــة والاطفـــــال.. في العيـــد

تحقيق وتصوير- طاهرة داخل

استعجل الاطفال العيد ، وتهيأوا قبل اوانه ، واول ما كانوا يخططون له قضية (العيدية) وكيف سيصرفونها!!

هوايتي في العيد تأمل فرحة الطفولة في الساعات الاولى من اليوم الاول من العيد خاصة. كنت ارقبهم منذ الصباح الباكر ، واكثر ما يضحكني حركات الصبايا والاشياء الكثيرة التي وضعنها في الشعر المنسدل او في الضفائر او الحقائب البراقة الملونة ومشيتهن الجادة مثل سيدات مجتمع وكأنهن تركن الطفولة على عتبات منازلهن واحتفظن بملامحها فقط. قلت لنفسي وانا اراقبهم ، انه اول الاحتفال والكل محرجون من الساعات الاولى ، لانهم يرون انفسهم بملبس جديد ، والوان واشكال ، لم يتكيفوا معها بعد.

ربما بعد قليل سيخفون راكضين نحو الاراجيح ودولاب الهواء. وستحررهما الكركرات من قيد الساعة الاولى لبدء طقوس العيد.

عند الظهيرة صرت أتأملهم من مسافة قريبة وانا انتظر ولدي الذي شمر عن طاقته وراح ينتقل بين الالعاب.

لم يكن في داخلي أي استياء مما اراه، برغم ان المكان الذي حشدت فيه الالعاب المحلية الصنع، والارض تعج بالغبار الذي تثيره الاقدام الصغيرة الى حد الاختناق.

كان بائع الاطعمة المكشوفة يبيع الصمون والفلافل والعنبة اللزجة ويزيل الذبابات التي تعلق عليها امام الصغار، وكأن شيئاً لم يكن. وكان الشخص الذي يدير الدولاب يستغل لهفة الاطفال الآخرين يغادرون اللعبة بعد ثلاث دورات فقط ومقابل (٢٥٠) دينار.

وكان بائع الجلي يستخدم اصباغاً ليست للاطعمة ويخلطها مع النشاء وبعض ذرات السكر. ويصبها في اكواب بسعر ٢٥٠ ديناراً ايضاً، ليشتريها الاطفال او ليرموها بعد خطوات من البائع.

ولم يكن في داخلي استياء كبير، برغم وجود ثلاثة من الشباب يقومون بعملية نصب اذ وضعوا ثلاث علب فارغة وجعلوا الاطفال يحاولون اصابتها بسلاح معطوب، لا يمكن الا ان يخطئ الهدف، والمحاولة بـ (١٠٠) دينار.

كنت اقول لنفسي مساكين هؤلاء الاطفال انهم يتحركون، ويدورون، ويصرفون ما في جيوبهم، ولا يشعرون ولو للحظة بانهم مخدوعون طوال الصباح. والمفارقة ان كل ما يقدمه الآخرون يبدو مقبولاً ويدخل في نفوسهم الفرح.

الا ان امرا اساءني بعمق وهو ظاهرة الاسلحة والاطفال التي برزت في هذا العيد بروزاً واضحاً بل اصبح ميزة هذا العيد توفر (اللعب، الاسلحة) بانواع واشكال حديثة وبأسعار متنوعة وبعضها باهظة الثمن.

كان معظم الاطفال يحملون الاسلحة من جميع الانواع والاحجام وبعضاً منها يحتوي على ليزر وساندات ونواظير.

كان بعض الاطفال يمرون من امامي يتحدثون بلغة الحرب: الافعال والحروف والتعابير، والاشارات.

هوس، وجنون ساد في الساحة حين حل بائع الاسلحة وتحولت ساحة الالعاب المكتظة بالاطفال ساحة معركة وحين ضاق بهم المكان انسحبوا الى نهايات وبدايات الشوارع الفرعية التي تؤدي الى بيوتهم.اثار هذا الامر سؤالاً في رأسي: من يستورد هذه الالعاب لاطفال عانى بلدهم من حروب طاحنة؟ واين فكرة السلام التي نتحدث عنها في الصحف ويتنمق بها المسؤولون حين يتباكون على الاطفال الذين تعرضوا الى عنف السلاح او يؤكدون في تعليقاتهم ضرورة القضاء على ثقافة العنف؟ ربما هو حديث فيه خيال فنتازي الا انه الحقيقة المطلوبة لبلد صار السلاح جزءاً من متطلبات حياته في البيت تماماً مثل (الثلاجة) والتلفاز، والمكيف وغيرها. ويستخدمه المواطن حين يفرح ويحزن ويغضب.

اقتربت من مجموعة من الاطفال كانوا يحملون اسلحة متنوعة وسألت احدهم وانا احاول ان اجعل السؤال يبدو من باب الفضول والمجاملة، بكم اشتريت هذه البندقية؟

- انتفض الصغير مثل ديك قروي، واجابني مفاخراً:

- انها ليست بندقية، انها (غدارة).

ضحكت بدهشة فانا لا اميز بين قطع الاسلحة ولا ادري هل يشكل جوابه فرقا ام لا،فاستدركت قائلة بسرعة:

- نعم بكم هذه الغدارة؟

فأجاب:

- بثلاثة الاف وخمسمائة دينار فسألته:

- هذا يعني انك صدفت (العيدية) كلها؟

فقال: (لا) والدي اشتراها لي.

احد الاطفال كان قريباً مني قال عبارة كبيرة على سنه بعض الشيء: (السلاح شيطان).

ايدته بإشارة من راسي لاني كنت اريد استدراج الاطفال الاخرين الى الحديث حول الاسلحة.

طفل في العاشرة من عمره يحمل مسدساً قال بهدوء:

- السلاح هواية وانا احبه كثيراً.

فسألته: هل لديك هواية اخرى غير شراء الاسلحة من اللعب؟! فاجابني (لا).

طفل ثالث يحمل سلاحاً اخر يقول عنه انه رخيص واشتراه من العيدية بـ (٢,٥٠٠) دينار.

طفل صغير بالكاد توقف للحظة امامي لانه يطارد خصماً له بمسدس صغير، اجاب على سؤالي قائلاً: هذا هو الموجود (خالة) الكل يشتري مسدسات.

احد الرجال كان يرتكن الجدار بانتظار ولده الذي توجه نحو الالعاب. بادر بالكلام قائلاً:

- انا لا اشتري لولدي السلاح مهما الح علي.

كرهنا السلاح والمسلحين ولكن المعروض من الالعاب نوعان (السيارات والاسلحة) لماذا لا يبتكرون لعباً للاطفال الصبيان بشكل خاص تلفت انتباههم؟!

لم اعلق على حديث الرجل، ولكن السؤال الذي طالما صرت اكرره في الاونة الاخيرة وصار لوقعه في النفس كوقع الجرح دون اثر:

" من سرق طفولة اطفالنا"؟

ولماذا لم اشم الاكل وانا واقفة امام الصغار وفي داخلي مقت للسلاح الذي بين ايديهم، حتى وان لم يكن من حديد ورصاص وذخيرته من كرات بلاستيكية. يكفي ان ينشغل الطفل بشعور انه يوجه السلاح الى شيء ما ليصيبه، ويركز على ان ينفذ اصابته. هل يمكن ان اكون قد حملت الامر اكثر مما يستحق؟!

هل انسى عبارة السياب حين يقول:!" أسٍ موجع ان يموت الصغار"

وهل اعيد انتاج تفاؤله حين يبدأ قصيدة (الاسلحة والاطفال).

عصافير؟ ام صبية تمرح؟!ام الماء: من صخرة ينضح؟فيخضل عشب وتندى زهور

زهور... ونور

اين انا من تفاؤل السياب الذي لم ير (اشلاء اطفال) و (المفخخات) او اطفال ماتوا اختناقاً بالغاز وكأنهم نيام؟

يكفينا ما رأيناه من كل انواع ووجوه الموت.

اعنفها... وارقها

لا نريد سلاحاً، التجار استغلوا ظروف البلد وعدم الاهتمام للتخطيط في وزارة التجارة في تحديد نوع وكمية السلع المستوردة للاطفال وبشكل خاص (اللعب).لقد استخدموا الطفل هدفاً تسويقياً مستغلين حاجة الطلب والالحاح واعتبار اقتناء السلعة مسألة حتمية وتعد من الامور غير قابلة للنقاش عند الاطفال. فضلاً عن اعتقاد رب الاسرة العراقية بان اطفالهم حرموا كفاية وعليه ان يطلق العنان لتنفيذ معظم رغباته من (الموز) حتى شراء (الاسلحة، الالعاب).

انا أتساءل مع السياب:

" له الويل ماذا يريد"؟يريدون ان لا تتسم الحياة؟ فلا بيدر في سهول العراق ولا صبية في الضحى يلعبون!! ولا همس طاحونة من بعيد لان الطواغيت لا يحلمون بغير المبيعات والاسهم وان الطواغيت لا يسمعون سوى رنة الفلس والدرهم.عذراً لقصيدة السياب التي تقافزت في ذهني في فوضى المشاهد، واعتذاراً اقدمه لبراءة كل اطفال العراق نيابة عن كل من اساء اليهم.

ليس ذنبهم ان يخدعهم بائع الفلافل والحلويات والالعاب وعامل الدولاب.

وليس ذنبهم حين يترعون من ثقافة العنف، فهم ما زالوا محاصرين.

استقبلـــوا العيد بفـــرح... لكـــن بحـــذر

عبد الزهرة المنشداوي
تصوير- سمير هادي

بدأت الاعياد تستعيد عافيتها، مراجيح الاطفال وباعة العربات والبالونات طرزت بألوانها مناطق مدينة بغداد. الاطفال والصبيان بثيابهم الجديدة الملونة كانوا اشبه بأزهار تفتحت للتو صباح يوم عيد الفطر المبارك. العوائل في زيارات متبادلة يلقون على بعضهم البعض تهاني وامنيات العيد السعيد.

(عيد بحق) هذا ما قاله لي زميلي ابو رائد العسكري المتقاعد (٥١ عاماً) وهو يتطلع الى حركة الناس ونشاط الاطفال وكركراتهم.

اخبرني بأنه للمرة الاولى استطاع ان يشتري لاطفاله السبعة ثياباً جديدة بعد ما كان يقدم الوعود ويخلق بالقول: بسبب ضيق ذات اليد لكنه اليوم يشعر بأبوته القادرة على العطاء وعدم الخداع وادخال السرور والبهجة الى نفوس اطفاله.

واضاف: لقد اشتريت لزوجتي عباءة جديدة ايضا وابتسم ابو رائد منتظراً ان اعقب على قوله الاخير لكني سررت لسروره وابتسمت له بالمقابل.

صادق (١٣ سنة) استوقفته في الشارع لأسأله عما اشتراه للعيد فأجاب:

اشتريت قميصاً وبنطالاً وحذاءً وحزاماً جديداً وهو يعد العدة للذهاب الى مدينة الالعاب مع رفاقه وان لديه من النقود مبلغاً قدره (خمسة الاف) دينار سينفقها كلها خلال ايام العيد.

ويضيف: انه اول عيد احصل فيه على مثل هذا المبلغ.

كم انفقت؟

امين خطاب (٤٠) عاماً يعمل حارساً ويسكن مدينة العبيدي سألته وهو بين اطفاله الثلاثة كم انفقت عليهم في هذا العيد؟ فاجاب:

ستون الف دينار مع امهم بالطبع. (ضحك ثم اضاف): لم يكن بمقدوري اكساؤهم في السابق لكن الحمد لله تمكنت من ان اجعلهم يفرحون هذا العام، وادعو الى الله ان يمن ببركاته على جميع العراقيين وان يجعل من جميع ايامهم اعياداً. كل ما يعوزنا الان هو الامن والاستقرار وان تلتفت الدولة الى شريحة العاطلين عن العمل فتجد لهم الوظائف ليدخلوا السرور على نفوس اطفالهم ايضاً.

سبعة اطفال بثياب جديدة

اشتريت لهم جميعاً ثياباً جديدة للعيد. هذا ما قاله لنا ابو عبد الله ٥٢ عاماً ويعمل سائق سيارة اجرة، ويضيف:

لقد كلفتني كسوتهم مئتي الف دينار، ما يهم انني استطعت ادخال الفرحة الى نفوسهم وهذا ما كنت اتمناه وقد مكنني الله سبحانه وتعالى من ذلك.

الاطفال (خطية) يجب ان لا نحرمهم من ان يمرحوا ويحصلوا على ما يتمنونه وامنياتهم بسيطة، ولكن مع بساطتها لم يكن باستطاعتنا ان نحققها لهم، فانت تعلم ماذا فعل بنا صدام اللعين وبأطفالنا.. الان نريد ان نعوضهم عما حرموا منه في السابق.

اراء

السيدان شايع الموسوي مسؤول منظمة حقوق الانسان والديمقراطية وحيدر علي مسؤول مجلس محافظة بغداد.

الاول ذكر لي قائلاً:لفت انتباهي في ايام عيد الفطر المبارك تنوع الوان ملابس الاطفال، لقد سررت عند رؤيتي لهم يمرحون في ساحات الالعاب وهم يتأرجحون او يصعدون على ظهور الحيوانات المؤجرة. لم اجد بينهم اطفالاً يرتدون ثياباً سوداء. كان لون السواد هو الغالب في اللباس ايام النظام المقبور. الان ارى ايديهم ملأى بالنقود ولا يقبلون بالقليل منها (هنا يضحك) الموسوسي ثم يعاود القول:كان اطفالنا محرومين وارى ان الاوان قد حان لكي نعوضهم عن ايام الحرمان، ايام البحث عما يسد رمقهم من غائلة الجوع.

اما الثاني فيذكر:

منظر الاطفال جلب انتباهي كثيراً في هذا العيد ولا اعلم ان كنت مصيباً في ذلك. حقيقة جلبوا انتباهي بانتشارهم في ساحات اللعب وبثيابهم الجديدة وان كانت بسيطة لكنها مع ذلك اشرت لي شخصياً بان العوائل بدأت تتعافى بعض الشيء وبدأت تهتم بالاطفال والطفولة وعلى عكس ما كان في العهد السابق حين كان يبدو العيد لا يتميز عن بقية الايام بل كانت اشد وطأة ولا سيما لاصحاب العوائل الذين لم يكن بمقدورهم تقديم ما يمكن تقديمه لعوائلهم في مثل هذه المناسبات. انا مبتهج لا لشي الا لرؤيتي الاطفال بثياب جديدة ولديهم ايضاً نقود يشترون بها الحلوى بدا لي السيد حيدر سعيداً لسعادة الاطفال.

المعلم واطفاله

السيد ابو عمار (٥٠) عاماً يعمل معلماً في مدينة الصدر يتقاضى راتباً شهرياً مقداره ٤٠٠ الف دينار قال:

اكثر من مئتي الف دينار صرفتها بتجهيز اطفالي بالملابس كل طفل كلفتني ملابسه نحو خمسة عشر الف دينار اشتريتها لهم مع عدم قناعتي بما مطروح للبيع من قطع الملابس التي لم تكن بالمتانة المطلوبة او نوعية القماش الجيدة ومع ذلك اشتريتها لهم لكي لا افوت عليهم فرصة الاحتفال كغيرهم من الاطفال بمناسبة عيد الفطر المبارك. لقد استعدت بذاكرتي تلك الايام السود التي عجزنا فيها كاباء عن الحصول لهم على ملايس حتى لو كانت مستعملة لنشعرهم بالعيد كما كنا نشعر به من خلال اهتمام ابائنا عندما كنا اطفالاً.

ثلاث بنات

انفال وضحى وطيبة بأعمار ثماني وتسع واربع عشرة سنة، بنات السيد عبد الله حمود الذي يعمل موظفاً، كن مع ابيهن في الطريق لزيارة الاقرباء. استوقفتهم لأسألهم عن شعورهم بايام العيد فيقول الاب:

لا اخفي عليك بان شعوراً يخامرني في هذه اللحظة بالذات بانني اب لبناتي، كنت احزن كثيراً ايام صدام عندما اجد نفسي عاجزاً تماماً عن شراء بدلة ولو مستعملة لهن في ايام الاعياد وكنت عندما انظر اليهن اتحدث مع نفسي فأقول انهن يتيمات!